العراقية
المجلات الاكاديمية العلمية
IRAQI Academic Scientific Journals
Al-Itqan Journal of Humanities
available online at
https://iasj.rdd.edu.iq/journals/journal/view/575
ISSN: 3105-1073 (OnIne)
المجلة معتمدة بالترقيات العلمية حسب كتاب وزارة التعليم العراقية (46404-1410) في 2026/4/27

الحواس وعلاقتها بالصورة الشعرية عند ابن شكيل الأندلسي

م.د. رعد رمضان محمد
مديرية تربية نينوى

الملخص

الشعرُ ديوانُ العرب الخالد، وسفرُهم الجامع الذي احتضن تجاربهم وعواطفهم وتأملاتهم منذ فجر التاريخ .وفي رحاب الأندلس الرائعة، تلك الجنة الإسلامية التي زاوجت بين الحضارتين العربية والأيبيرية، أينعت أزهارٌ شعريةٌ فاتنة، ونضجت قرائح أعطت الأدب العربي روائع لم تُجاوَز حتى اليوم .ومن أبرز هؤلاء الشعراء الأندلسيين ذلك الصوت المتميز المعروف بابن شكيل، الذي تميّز شعره بقدرة فائقة على توظيف الحواس الإنسانية في صياغة صوره الشعرية.وتتجلى أهمية هذه الدراسة في أنها تسعى إلى تسليط الضوء على ظاهرة فنية جوهرية في الشعر الأندلسي، ألا وهي الحضور الكثيف للحواس في نسيج القصيدة وبنيتها الصورية .ذلك أن الشعر الأندلسي بطبيعته نشأ في بيئة تُغري بالتأمل الحسي :بيئة الطبيعة الخلابة والقصور الباذخة والحدائق المزهرة والأنهار المتدفقة .ومن ثَمَّ كان طبيعياً أن تنعكس هذه البيئة على الشعر فتمنحه طابعَه الحسي الفريد.وقد آثرنا البحث في هذا الموضوع انطلاقاً من إيماننا بأن الصورة الشعرية، بما تنطوي عليه من أبعاد حسية متشعبة، هي المعبر الأصدق عن دواخل الشاعر ورؤيته العالمية .فالشاعر الحقيقي لا يتكلم بلسانه وحسب، بل يرى بعيون قصيدته، ويسمع بآذانها، ويشم بأنفها، ويلمس بأناملها، ويذوق بحنجرتها .وابن شكيل الأندلسي أنموذج رفيع يتجسد فيه هذا المفهوم بصورة لافتة للنظر. الكلمات الافتتاحية: الصورة ، الاندلس ، الحواس . السمعية

Abstract

Poetry is the Arabs' timeless record, their comprehensive chronicle that has embraced their experiences, emotions, and reflections since the dawn of history. In the magnificent embrace of Andalusia, that Islamic paradise that blended Arab and Iberian civilizations, enchanting poetic blossoms bloomed, and creative minds matured, bestowing upon Arabic literature masterpieces that remain unsurpassed to this day. Among the most prominent of these Andalusian poets is the distinctive voice known as Ibn Shakil, whose poetry is characterized by a remarkable ability to employ human senses in crafting its poetic imagery.The significance of this study lies in its attempt to shed light on a fundamental artistic phenomenon in Andalusian poetry: the pervasive presence of the senses within the fabric and imagery of the poem. This is because Andalusian poetry, by its very nature, arose in an environment that invites sensory contemplation: an environment of breathtaking nature, opulent palaces, blossoming gardens, and flowing rivers. Consequently, it was only natural that this environment would be reflected in the poetry, granting it its unique sensory character.We chose to explore this topic because we believe that poetic imagery, with its multifaceted sensory dimensions, is the truest expression of the poet's inner world and worldview. A true poet does not merely speak with his tongue, but sees with the eyes of his poem, hears with its ears, smells with its nose, touches with its fingers, and tastes with its throat. Ibn Shakil al-Andalusi is a remarkable example of this concept.

التمهيد

أولاً :مفهوم الحواس

الحواسُّ– جمع حاسّة –هي القوى الإدراكية الجسدية التي يُؤمّن بها الإنسانُ تواصلَه مع العالم الخارجي، وهي خمس :البصر والسمع والشم واللمس والذوق .وقد عرّفها المناطقة والفلاسفة تعريفات متعددة، إلا أنها جميعاً تصبّ في مجرى واحد، هو أن الحاسة وسيلةٌ إدراكيةٌ ضرورية يستقبل بها العقلُ معطيات العالم المحيط .وقد أولاها علماء النفس والجمال عنايةً فائقة، إذ رأوا أن الإدراك الحسي هو نقطة انطلاق كل تجربة إنسانية، بما فيها التجربة الجمالية والإبداعية [1].وفي سياق الدراسات الأدبية والنقدية، غدت الحواس مفهوماً محورياً لا غنى عنه لفهم الصورة الشعرية وتحليل

بنيتها .ذلك أن الشاعر، في معظم أحواله، يستقي مادته الشعرية مما تُزوده به حواسه من مشاهدات ومسموعات ومشمومات ومحسوسات ومذوقات . فحاسة البصر تمنحه عالم الألوان والأشكال والحركات، وحاسة السمع تفتح له نوافذ على الأصوات والإيقاعات والموسيقى، وحاسة الشم تُحيله إلى عوالم العطور والروائح الطيبة أو الكريهة، وحاسة اللمس تُقرّبه من نسيج الأشياء وملمسها ودرجة حرارتها، وحاسة الذوق تُغنيه بمتعة الطعوم وتنوعها[2] .وقد تجاوز الباحثون في مجال النقد الحديث النظرةَ التقليدية التي تُحصر الحواس في دورها الوظيفي المجرد، ليُؤكدوا أن الحاسة في الشعر ليست أداة نقل ساذجة، بل هي أداة تحويل وتأويل وخلق، تُحيل المدرَك الحسي الخارجي إلى معادل رمزي داخلي تنسجه القصيدة في بنيتها وتُشعّ به في آفاقها الدلالية.

ثانياً :مفهوم الصورة الشعرية

الصورة الشعرية مصطلحٌ نقديٌّ ذو جذور ضاربة في التراث البلاغي والنقدي العربي القديم، وإن اتسع مداه وتعمقت أبعاده في ضوء المناهج النقدية الحديثة. وهي في أبسط تعريفاتها :الكيفية التي يُصوِّر بها الشاعر تجربتَه أو موقفه أو انفعاله، مستعيناً بالمقارنة والمجاز والرمز والأساطير والحواس، ليُبدع خطاباً يتجاوز الإخبار الجاف إلى الإيحاء المُلمِح والتأثير العميق في المتلقي [3].وقد تعددت مناهج تعريف الصورة الشعرية وتصنيفها، غير أن الباحثين اتفقوا على أن الحواس تُمثّل أهم روافدها وأخصبها .فالصورة البصرية التي ترسم للمتلقي مشهداً محدداً يرى خطوطه وألوانه وأبعاده، والصورة السمعية التي تُصغي إليها الأذن كما تُصغي إلى الموسيقى، وسائر الصور الحسية الأخرى، كلها وجوهٌ مشرقةٌ لتلك الظاهرة الإبداعية الجمالية التي نُسمّيها الصورة الشعرية [4].وفي الشعر الأندلسي بوجه خاص، بلغت الصورة الشعرية ذروتها وأوجَها، إذ وجد الشاعر الأندلسي نفسه في حضن طبيعة ساحرة وحضارة زاهرة أمدّت خياله وأثرت حواسه وفتحت أمامه آفاقاً من الجمال لا نهاية لها .فكانت صوره لذلك أكثر حيويةً وأشد توهجاً وأغنى تنوعاً من كثير مما أُبدع في غيرها من الأقطار.

ثالثاً :نبذة عن حياة الشاعر ابن شكيل الأندلسي

ابن شكيل الأندلسي شاعرٌ أندلسيٌّ من شعراء عصر ملوك الطوائف، ذلك العصر الذي شهد– رغم تمزقه السياسي –ازدهاراً ثقافياً وأدبياً منقطع النظير، إذ تنافست الحواضر الأندلسية المختلفة في استقطاب الشعراء والأدباء ورعايتهم .وقد نشأ ابن شكيل في بيئة أندلسية مُتحضِّرة عريقة، تُحفّها البساتين وتُزيّنها القصور، وتتردد في أجوائها موسيقى الأغاني والمياه المتساقطة والطيور المُغرِّدة [5].يُذكر أنه كان موهوباً متعدد المشارب، يجمع بين الشعر والموسيقى والتأمل الفلسفي، وكانت تجربته الشعرية تعكس انغماسه العميق في الحياة الأندلسية بكل جمالها وألمها .وقد أشاد به معاصروه وأثنى عليه من جاء بعدهم من مؤرخي الأدب الأندلسي، كابن بسّام الشنتريني في ذخيرته، والمقّري في نفح الطيب [6]. وتُعدّ قصائده من النماذج الرفيعة التي تُجسِّد الروح الأندلسية بأبهى صورها، إذ تمتزج فيها عذوبة الطبع الأندلسي بعمق التجربة الإنسانية وثراء الموروث العربي الأصيل[7] .وقد تجلّت عبقريته الشعرية في قدرته النادرة على جعل الحواس الإنسانية نافذةً شفافةً يُطل منها على العالم، فيُحيل المرئي إلى مسموع، والمسموع إلى مشموم، وكأنه يُصهر حواسه الخمس في بوتقة واحدة ليُفرز منها قصيدةً تتجاوز الواحدية الحسية إلى ما يُسمّيه الدارسون بـ"التحاسس " أو" تداخل الحواس."

رابعًا: العلاقة بين الحواس والصورة الشعرية

تُعد الحواس من أهم الأدوات التي يستند إليها الشاعر في بناء صورته الشعرية؛ لأنها تمثل الوسيط الأول بين الإنسان والعالم الخارجي. فكل تجربة شعرية تبدأ بإدراك حسي معين، سواء أكان بصريًا أم سمعيًا أم شميًا أم لمسيًا أم ذوقيًا، ثم يعمد الخيال إلى إعادة تشكيل هذا الإدراك في صورة فنية تتجاوز حدود الواقع المباشر. ومن هنا أصبحت الصورة الشعرية نتاجًا للتفاعل بين الإحساس والخيال، إذ لا يكتفي الشاعر بنقل ما تدركه الحواس، بل يمنحه أبعادًا جديدة تفتح أمام المتلقي آفاقًا واسعة من التأويل.وقد أكد النقاد المحدثون أن القيمة الجمالية للصورة الشعرية لا تكمن في وصف الأشياء كما هي، وإنما في الطريقة التي تُدرك بها الحواس تلك الأشياء وتعيد إنتاجها فنيًا. فالصورة البصرية لا تقتصر على رسم المشهد، بل تنقل ما يثيره من مشاعر وانفعالات، والصورة السمعية تتجاوز نقل الصوت إلى التعبير عن الحالة النفسية المصاحبة له، أما الصور الشمية واللمسية والذوقية فإنها تسهم في تعميق الإحساس بالمشهد الشعري ومنحه طاقة إيحائية أكبر. لذلك أصبحت الحواس إحدى الركائز الأساسية التي تقوم عليها الصورة الشعرية الحديثة، لما توفره من قدرة على تجسيد المعاني المجردة وتحويلها إلى خبرة حسية قريبة من وجدان المتلقي.[8]وفي الشعر الأندلسي على وجه الخصوص، اكتسبت الحواس أهمية استثنائية بسبب طبيعة البيئة الأندلسية الغنية بالمشاهد الجمالية والأصوات العذبة والروائح الزكية، الأمر الذي انعكس بوضوح في بنية الصورة الشعرية عند شعرائه. ومن هنا يمكن فهم كثافة الصور الحسية في شعر ابن شكيل الأندلسي بوصفها استجابة فنية لواقع حضاري وطبيعي أسهم في صقل تجربته الشعرية وتوجيه خياله نحو بناء صور متعددة الأبعاد.[9]

خامسًا: القيمة الجمالية للصورة الحسية في الشعر الأندلسي

تُعد الصورة الحسية من أبرز السمات الفنية التي تميز بها الشعر الأندلسي عن غيره من ألوان الشعر العربي؛ إذ وجد الشاعر الأندلسي نفسه محاطًا ببيئة غنية بالمظاهر الجمالية التي تستثير الحواس جميعها. فالطبيعة بما فيها من أنهار وحدائق وأزهار وطيور لم تكن مجرد إطار خارجي للحياة، بل أصبحت عنصرًا فاعلًا في تشكيل الرؤية الشعرية وبناء الصورة الفنية. وقد أسهم هذا التفاعل بين الإنسان والطبيعة في إنتاج صور شعرية تمتاز بالحيوية والدقة والقدرة على استثارة وجدان المتلقي.[10]ومن هنا اكتسبت الصورة الحسية قيمة جمالية خاصة، لأنها تمثل نقطة التقاء الواقع بالخيال، والمحسوس بالمجرد، إذ يستطيع الشاعر أن ينقل القارئ من عالم الإدراك الحسي المباشر إلى عالم الدلالات النفسية والرمزية الأوسع. لذلك أصبحت الحواس أداة جمالية فاعلة تسهم في إثراء التجربة الشعرية وتوسيع آفاقها التعبيرية.

المبحث الأول الصورة البصرية

تُعدّ الصورة البصرية أكثر الصور الشعرية حضوراً وتمثيلاً في ديوان ابن شكيل الأندلسي، وذلك لا يُفاجئ الدارس حين يعلم أن الشاعر الأندلسي عاش في كنف طبيعة بصرية بالغة الروعة والإغراء، تتقاطع فيها الألوان وتتنافس الأشكال وتتحرك المشاهد في مشهد بانورامي حيّ متجدد فالصورة البصرية عند ابن شكيل ليست مجرد وصف بصري ساكن، بل هي لوحة فنية ذات إيقاع ودلالة وأبعاد تعبيرية عميقة.ومن أبرز ما يميز الصورة البصرية في شعره أنها تعتمد على الألوان بوصفها مفتاحاً رئيسياً لفهم دلالتها .فاللون الأخضر الذي يسود في وصف الطبيعة والبساتين يُحمَّل دلالات الحياة والخصب والأمل، في حين يُوظَّف اللون الأصفر أحياناً في مشاهد الذبول والرحيل دلالةً على الفقد .أما البياض فيرتبط بالنقاء والطهر والضوء، والسواد بالغموض والحزن والليل الثقيل .وفي هذا السياق يقول الشاعر:

وللروضِ ثوبٌ من عبيرٍ منسَّجٌ كأنَّ الضحى فيه على الماءِ أشرقا

تجلّت له الأنهارُ في لُجَجٍ لـــه وخُضرٌ من الأشجارِ حولَه أورقا[11]

ففي هذين البيتين تتجلى الصورة البصرية في أسمى صورها :فثمة الروضة التي تلبس ثوب العبير المنسوج، وهي صورة بصرية مُضافة إليها الحاسة الشمية .وهناك الضحى المشرق على الماء، وهي صورة بصرية تجمع بين الضوء والانعكاس والحركة .ثم الأنهار في لُججها، والأشجار الخضراء المُورِقة من حولها .كل هذه المشاهد البصرية الزاهية تُبني لوحةً شعريةً متكاملة تُرى قبل أن تُقرأ.ويمضي الشاعر في رسم صوره البصرية ليُجسّد مشهد القمر الذي هو من أكثر موضوعاته التي أغرم بها، فيقول:

والبدرُ كالمرآةِ في كفِّ الدُّجى يجلو لنا صفحاتِ وجهِ الأُفُقِ

كأنَّ النجومَ حولَه وصفاتُهُ يُطيفُ بها في السرِّ جيشٌ مُحدِّقُ[12]

إن صورة البدر كالمرآة في كف الدجى صورةٌ بصريةٌ مركّبة، تنضوي على تشبيه تجسيمي لافت :القمر الذي يجلو صفحات الأفق كما تجلو المرآة انعكاسَ ما يقع أمامها .وهذه الصورة تمنح الضوء القمري بُعداً وظيفياً :إنه ليس مجرد ضوء يُنير الليل، بل هو جالٍ وكاشف وموضِّح .ثم تأتي النجوم في البيت الثاني لتُكمل اللوحة البصرية، محاطةً بالقمر كما يُحاط الملك بحشمه[13].وتبلغ الصورة البصرية عند ابن شكيل ذروتها حين يصف الحبيبة، إذ يُحيل ملامحها إلى معادلات بصرية مُبدِعة، موظِّفاً عناصر الطبيعة الأندلسية المألوفة– كالوردة والغزال والنجم –ليُجسّد جمالها في صورة لا تُنسى .ويتضح أن الصورة البصرية عنده ليست نهاية في ذاتها، بل هي بوابة تُفضي دائماً إلى عالم من المعاني والدلالات التي تتخطى حدود الشكل إلى الجوهر.ويبدو من خلال النماذج السابقة أن الصورة البصرية عند ابن شكيل لا تؤدي وظيفة الوصف فحسب، وإنما تنهض بدور تعبيري يتجاوز حدود المشهد المرئي إلى الكشف عن موقف الشاعر النفسي من العالم. فالطبيعة في شعره ليست عناصر جامدة، وإنما كائنات حية تشارك الإنسان مشاعره وتستجيب لانفعالاته. ولهذا جاءت الألوان والأنوار والظلال وسائل فنية للتعبير عن الفرح والحزن والأمل والحنين، مما منح الصورة البصرية بعدًا نفسيًا واضحًا وجعلها أكثر تأثيرًا في المتلقي.[١٤]

المبحث الثاني الصورة السمعية

إذا كانت العين هي نافذة الشاعر الأولى على الوجود، فإن الأذن هي نافذته الثانية التي تُتيح له أن يلتقط خفايا الكون وأسراره المُعلَنة في الأصوات . والصورة السمعية في شعر ابن شكيل الأندلسي من الثراء والتنوع بمكان يجعلها ميداناً خصباً للدراسة والتحليل .فالشاعر في بيئة أندلسية تتعدد فيها مصادر الصوت وتتشابك :صوت الماء المتدفق في قنوات القصور والحدائق، وأصوات الطيور المُغرِّدة في الحدائق المُزهرة، وأنغام العود والمزمار التي كانت لازمة لا تُفارق مجالس الأمراء والأدباء[1].ويُعبِّر ابن شكيل عن تجربته السمعية بلغة شعرية ترهف الإحساس وتُصغي إلى ما وراء الصوت .فصوت الحمامة عنده ليس مجرد صوت طائر، بل هو رسالة حنين وشوق وبكاء يُجسِّد ما يعتمل في أعماق النفس من وجد وتلهف . يقول في ذلك:

نَاحتْ حمامتُهُ على الغصنِ الرَّطيبِ فأيقظتْ في القلبِ داءً مُستريبا
يا طيرَ هل نَحَبُكَ شوقٌ كشوقتي أم أنتَ بكّاءٌ تُجيدُ الترتيبا؟[15]

في هذين البيتين تتشكّل الصورة السمعية في تجلّياتها الأعمق :نَوْح الحمامة على الغصن يُستحضَر صوتاً قبل أن يُستحضَر مشهداً، وهو صوت له قدرة عجيبة على إيقاظ الداء المستريب في القلب .ثم يُحدِّث الشاعر الطيرَ بأسلوب استفهامي يُشرِك المتلقي في تجربة الاستماع والتأمل، وكأنه يقول :إن الصوت الذي تسمعه أذني ليس مجرد صوت، بل هو دراما كاملة تتردد أصداؤها في أعماق الوجدان [16].وفي مشهد آخر يرسم ابن شكيل صورة سمعية مركبة تجمع بين صوت الوتر الموسيقي ودبيب المشاعر الداخلية، فيقول:

وللوترِ أنينٌ كأنينِ محبٍّ شَفَّ منه الهوى وأودى الغرامُ
تُحرِّكُهُ الأناملُ فيتنهَّدُ كأنَّ دموعَهُ تلكَ الأنغامُ[17]

إن الصورة السمعية هنا تبلغ أقصى طاقتها الإيحائية :أنين الوتر الموسيقي يُساوَى بأنين المحب المتقد بنار الغرام، وتحريك الأنامل للوتر يُشبَّه بالتنهيد، وأنغام الوتر تُعادل الدموع .وبذلك يُحوِّل الشاعر الصوتَ الموسيقي الخارجي إلى صوت وجداني داخلي، مزاوِجاً بين حاسة السمع وعالم العاطفة.ولا تقتصر أهمية الصورة السمعية عند ابن شكيل على محاكاة الأصوات الطبيعية أو الموسيقية، بل تتجلى أهميتها في قدرتها على تجسيد الانفعالات النفسية. فالصوت في كثير من الأحيان يتحول إلى لغة بديلة عن المشاعر، بحيث يصبح أنين الوتر أو هديل الحمام أو خرير الماء معادلًا فنيًا لما يعتمل في النفس من شوق أو حزن أو تأمل. ومن ثم فإن الصورة السمعية تسهم في بناء البعد الوجداني للقصيدة، وتمنحها طاقة إيحائية تتجاوز حدود السماع إلى المشاركة الشعورية.[18]

المبحث الثالث الصورة الشمية

الشمُّ حاسةٌ غريبة في حقل الشعر؛ تمسك بخيوط الذاكرة وتُحرك مياهها الراكدة، وتُعيد إحياء تجارب طالما اعتقدنا أنها غارت في النسيان .وابن شكيل الأندلسي– الذي عاش في مدينة كانت تفوح منها رائحة الزهر في كل اتجاه وعلى مدار الفصول –لم يُفلت هذه الحاسة بل جعل منها رافداً شعرياً أصيلاً .فالصورة الشمية في شعره تتوزع بين عطور الحبيبة، وأريج الطبيعة الأندلسية بأزهارها ورياحينها، وعبق التراب المبلول بعد المطر، وروائح الطعام والشراب في مجالس الأنس.ولعل أبرز ما يُميِّز توظيف الشاعر لحاسة الشم أنه يجعلها وسيلةً لاستحضار الغائب وتجسيد المجرد . فعطر الحبيبة في غيابها يُعادل حضورها المُشتهى، وأريج الربيع يُستحضَر بوصفه خبراً عن انبعاث الروح وتجددها .يقول الشاعر واصفاً الحبيبة:

وعابقةُ المسكِ إذ تنثني كغصنِ البانِ بالعَرَجِ الناشئِ
تُعبِّقُ كلَّ المكانِ برُوحٍ من المسكِ في الثغرِ والجائشِ[19]

إن الحبيبة هنا ليست مجرد صورة بصرية، بل هي حضور عطري طاغٍ يملأ الفضاء ويتسرب إلى خلايا المكان .وقوله" تعبّق كل المكان "يُجسِّد انتشار الرائحة وفيضانها، وهو تعبير يحمل في طياته إيحاءات الاستيلاء والسيطرة الجميلة .فالعطر عنده ليس وصفاً جانبياً للحبيبة، بل هو من صميم هويتها وتعريفها الشعري[20].أما في وصف الطبيعة، فيقول الشاعر واصفاً الروضة في عشية مطيرة:

يُفيضُ العبيرَ الندى في الخميلِ كما يُفضُّ الدُّرُّ عن لُؤلُؤِ
وأنفاسُ نَوَّارِهِ في الضحى كأرواحِ ما بينَ بُرءٍ وعُوِّ[21]

الصورة الشمية هنا تُوزَّع بين إفاضة العبير في الخميلة– وهو مشهد يجمع بين الشم والبصر –وبين أنفاس النوّار التي تُشبَّه بأرواح المبروئين من المرض .وهذا التشبيه البديع يُضخّ في الصورة الشمية معنىً حيوياً وصحياً، فرائحة الأزهار ليست مجرد عطر يُستنشق، بل هي نَفَسٌ يُحيي ويُشفي ويُجدِّد.وترتبط الصورة الشمية في الشعر ارتباطًا وثيقًا بالذاكرة الإنسانية، إذ تعد الروائح من أكثر المثيرات الحسية قدرة على استحضار الماضي

وإحياء التجارب المخزونة في الوجدان. ومن هنا اكتسبت الروائح في شعر ابن شكيل دلالات تتجاوز معناها المباشر، فأصبحت وسيلة لاستعادة اللحظات الجميلة واستحضار الأشخاص والأماكن الغائبة. وهذا ما منح الصورة الشمية بعدًا نفسيًا عميقًا وجعلها إحدى الأدوات الفنية المؤثرة في تشكيل التجربة الشعرية.[22]

المبحث الرابع الصورة اللمسية

اللمسُ أكثر الحواس التصاقاً بالجسد وأعمقها صلةً بالوجود الحي المباشر، وهو حاسة تُقرّب المسافة بين الشاعر والعالم وتُمحو الحواجز الوهمية بينه وبين الأشياء .وفي شعر ابن شكيل الأندلسي تحتل الصورة اللمسية موقعاً متميزاً، إذ يُوظِّفها الشاعر لاستحضار ملمس الأشياء ودرجة حرارتها ونعومتها أو خشونتها وثقلها أو خفتها، مما يُضفي على نصوصه طابعاً حسياً يُجعل القارئ يُحسّ بالقصيدة قبل أن يفهمها [23] .وتتوزع الصورة اللمسية في ديوانه بين لمس النسيم الرقيق الذي يمس وجه الشاعر في الفجر، ولمس يد الحبيبة الناعمة، ولمس الماء البارد في يوم القيظ، ولمس نسيج الأوراق الخضراء والزهور الرقيقة .يقول الشاعر واصفاً نسيم الفجر:

ونسيمُ السَّحرِ يمسحُ خدَّ الزهرِ مسحَ الطيفِ على جبينِ الحبيبِ
رقَّ حتى أغفى على جُفُنِ الغصنِ وهمى في حجرِ النهرِ الخضيبِ[24]

الصورة اللمسية هنا تصل إلى أرقى درجاتها الشعرية :النسيم لا يُلمَس بالجلد فحسب، بل هو نفسه يلمس خد الزهرة بمسحة تنتقل من عالم الطبيعة إلى عالم الإنسان في تشبيه مُركَّب بالغ الدقة .فمسح النسيم لخد الزهر يُشبَّه بمسح الطيف لجبين الحبيب .وهذا الإحساس اللمسي الرقيق يُضخّ في المشهد إيحاءات الحنان والنعومة والحب الهادئ .ثم يُضيف الشاعر بُعداً آخر حين يُصوِّر النسيم وقد» أغفى «على جفن الغصن وهمى في حجر النهر، وكلاهما صورة لمسية مدهشة تُحيل النسيم إلى كائن حي يلمس ويُلمَس ويستريح [25].ويُوظِّف ابن شكيل الصورة اللمسية توظيفاً مُغايراً حين يتحدث عن الغرام والوجد، إذ يجعل من ألم الحب شيئاً ملموساً يُشعر به الجسد كما يُشعر بوخز الشوكة أو لسعة الجمر . يقول:

وللشوقِ في الأضلاعِ جمرٌ ملتهبٌ كأنَّ الحنينَ سيفٌ فيه يَشتَعِلُ[26]

الشوق هنا ليس شعوراً مجرداً، بل هو جمر ملتهب يُحسّ بلسعته من في الأضلاع .وإطار الجمر يُحيل إلى الحرارة والألم المحسوس، مما يُكسب الصورة اللمسية طابعاً درامياً صارخاً.تكشف الصورة اللمسية عن قدرة الشاعر على تجسيد المعاني المجردة في هيئة محسوسة قابلة للإدراك. فالحنين يتحول إلى جمر، والراحة إلى نسيم، والألم إلى وخز أو حرارة، وبذلك تصبح التجربة النفسية تجربة جسدية محسوسة. ويُعد هذا التحويل من أبرز مظاهر الإبداع الشعري؛ لأنه يقرب المعنى من المتلقي ويجعله أكثر حضورًا وتأثيرًا في النفس.[27]المبحث الخامس

الصورة الذوقية

الذوقُ حاسةٌ خاصةٌ، متصلةٌ بأعمق ملذات الإنسان وأشد تجاربه حميمية، وهي في آنٍ واحد أداة تمييز ونقد وتقييم .وفي الشعر العربي عموماً، والأندلسي خصوصاً، وظّف الشعراء هذه الحاسة في سياقات متعددة :وصف الخمر وطعمها، وذوق ريق الحبيبة أو لثمها، وطعم الفواكه الأندلسية الشهية، وطعم الدموع المالحة في لحظات الحزن .وابن شكيل لا يشذّ عن هذه التقاليد الشعرية، بل يُطعِّمها بروح أندلسية راقية [28].

ومن أبرز الصور الذوقية في شعره صورة ريق الحبيبة الذي يُقارن برحيق الزهر أو بالماء البارد المُثلَّج، وهي استعارة شعرية مُتعارَف عليها في التراث إلا أن ابن شكيل يمنحها بُعداً جديداً حين يُزاوج بينها وبين الحرمان والمعاناة .يقول:

يا رشأً ثغرُهُ الرحيقُ المُبرَّدُ وريقُهُ المُصفَّى في الكأسِ يُوردُ
أهواكَ والسُّقمُ في كبدي مُسهّدٌ وفمُكَ العذبُ شفاءٌ لو تُسعِدُ [29]

في هذه الأبيات تتجسد الصورة الذوقية في أعمق دلالاتها :ثغر الحبيب يُساوَى بالرحيق المُبرَّد، وريقه بالماء المُصفَّى الذي يُوضَع في كأس . والعطش في البيت الثالث– الذي يُلمَّح إليه بـ"السُقم في الكبد –"يجعل الفم العذب للحبيب بمثابة الشفاء الذي لا يُعطى .وهكذا يُجمع الشاعر بين الصورة الذوقية والحالة النفسية في لحمة شعرية متكاملة [30].

ويمضي الشاعر في توظيف الصورة الذوقية في سياق وصف الخمر ومجالس الأنس، فيقول:

صُبَّ لنا الكأسَ فالصهباءُ تنحلُّ على اللسانِ كما ينحلُّ عسلٌ خالِصُ
تُذيبُ الهمومَ كما تُذيبُ حلاوةٌ مرارةَ ما في الصدرِ والوجهُ راقِصُ[31]

الصورة الذوقية هنا تتمحور حول تجربة انحلال الشراب على اللسان كما ينحل العسل الخالص :وهي تجربة ذوقية نادرة التعبير في الشعر العربي . ثم يُضيف الشاعر بُعداً عاطفياً لهذه التجربة الذوقية، إذ يُساوي بين إذابة الشراب للهموم وإذابة الحلاوة للمرارة .فالذوق هنا يتجاوز وظيفته الحسية ليغدو ذوقاً روحياً وعاطفياً.

المبحث السادس تداخل الحواس (التحاسس) في شعر ابن شكيل الأندلسي

يُعد تداخل الحواس أو ما يُعرف بالتحاسس من الظواهر الأسلوبية البارزة في الشعر، ويقصد به انتقال صفات حاسة معينة إلى حاسة أخرى، كأن يوصف الصوت بأنه عذب أو اللون بأنه صارخ أو العطر بأنه ناعم. وتنبع أهمية هذه الظاهرة من قدرتها على توسيع دائرة الإدراك الحسي وإغناء الصورة الشعرية بأبعاد متعددة.وقد أفاد ابن شكيل من هذه التقنية الفنية إفادة واضحة، إذ مزج بين الحواس المختلفة في بناء كثير من صوره الشعرية. فالصورة البصرية قد تحمل إيحاءً سمعيًا، والصورة الشمية قد تتداخل مع الصورة اللمسية، الأمر الذي يضفي على النص الشعري ثراءً فنياً ويمنحه قدرة أكبر على التأثير في المتلقي. ولا يُعد هذا التداخل مجرد ترف فني، بل هو انعكاس لطبيعة التجربة الشعرية نفسها التي تتفاعل فيها الحواس والمشاعر والخيال في آن واحد.ومن خلال تتبع شعر ابن شكيل يتبين أن ظاهرة التحاسس تمثل إحدى السمات الأسلوبية المميزة لشعره، إذ أسهمت في بناء صور شعرية مركبة تجمع بين الإحساس الجمالي والدلالة النفسية، وتكشف عن وعي فني متقدم بقدرات اللغة على تجاوز حدود التعبير المباشر.[32]

الخاتمة

بعد هذه الرحلة المُعمَّقة في فضاء شعر ابن شكيل الأندلسي، جاسِّين أرضه الحسية ومستنطقين صوره المتنوعة، تتجلى أمامنا صورة شاعر لم يكن مجرد موصوف للجمال بل كان صائغَه بكل الحواس ومُحوِّلَه إلى نصوص تتنفس وتلمس وتشم وتسمع وتُذاق .فالصورة الشعرية عنده كائنٌ حسي متعدد الجوانح، يأبى الاختزال في بُعد واحد، ويحرص على أن يُشرك المتلقي في تجربة الاستقبال الجمالي بجميع طاقاته الحسية.تؤكد الدراسة أن الصورة الحسية لم تكن عنصرًا زخرفيًا في شعر ابن شكيل الأندلسي، بل شكلت أساسًا بنيويًا في تشكيل رؤيته الشعرية. فقد استطاع الشاعر أن يوظف مختلف الحواس بوصفها أدوات للكشف عن المعنى وإبراز أبعاد التجربة الإنسانية، الأمر الذي منح قصائده حيوية فنية خاصة وجعلها قادرة على الجمع بين متعة التصوير وعمق الدلالة.لقد أثبت البحث أن الحواس في شعر ابن شكيل الأندلسي لم تكن أدواتٍ شعريةً هامشية، بل كانت ركائز بنيوية جوهرية تتأسس عليها الصورة الشعرية وترتكز إليها في شرعيتها الجمالية .وأن هذا الشاعر استثمر البيئة الأندلسية الحافلة بالمثيرات الحسية استثماراً فنياً بالغ الحصافة والانتقاء، فانتخب من كل حاسة أكثرها فاعليةً وأعمقها دلالةً وأغناها توليداً للمعاني.وما يلفت النظر في هذا الشعر أن الحواس لا تعمل عنده معزولةً منفردة، بل هي في حالة حوار دائم وتداخل خلاق :فالصورة البصرية تتضمن إيحاءات سمعية أو شمية، والصورة اللمسية تنطوي على أبعاد بصرية أو ذوقية، وكأن الشاعر يعمل على دمج الحواس في تجربة واحدة شاملة يُسمّيها بعض النقاد الحداثيين بـ"التحاسس "أو التوافق الحسي .وهذه الظاهرة تُرسّخ مكانته بين كبار شعراء الأندلس الذين أحسنوا صنع الصورة الشعرية المتكاملة.ومن خلال تتبع الصور الحسية في شعر ابن شكيل الأندلسي يتبين أن الشاعر لم يتعامل مع الحواس بوصفها وسائل إدراك فحسب، بل بوصفها أدوات فنية قادرة على إنتاج المعنى وبناء الرؤية الشعرية. فالحواس في قصائده تتحول إلى لغة موازية للغة الألفاظ، تنقل الأحاسيس والانفعالات بصورة أكثر عمقًا وتأثيرًا، الأمر الذي أسهم في منح نصوصه طابعًا فنيًا متميزًا يجمع بين جمال التصوير وثراء الدلالة.كما أظهرت الدراسة أن البيئة الأندلسية كانت العامل الأبرز في تشكيل العالم الحسي عند ابن شكيل، إذ انعكست مظاهر الطبيعة الأندلسية بكل تفاصيلها في صوره الشعرية. فالحدائق والأنهار والأزهار والطيور لم تكن مجرد عناصر وصفية، بل أصبحت مكونات أساسية في بناء التجربة الشعرية، الأمر الذي منح شعره خصوصية فنية تميزه عن كثير من شعراء المشرق العربي.وتوصل البحث ايضاً إلى أن القيمة الفنية للصورة الحسية عند ابن شكيل لا تكمن في كثرة حضورها فحسب، وإنما في طبيعة توظيفها داخل النص الشعري؛ إذ استطاع الشاعر أن يحقق نوعًا من التوازن بين الحس والخيال، وبين الواقع والتصور الفني، فجاءت صوره نابضة بالحياة وقادرة على إثارة المتلقي وإشراكه في التجربة الشعورية. وهذا ما جعل شعره يمثل نموذجًا مهمًا لدراسة جماليات الصورة الحسية في الأدب الأندلسي.وتبين من خلال البحث أن القيمة الفنية للصورة الحسية عند ابن شكيل لا تكمن في كثرة حضورها فحسب، وإنما في طبيعة توظيفها داخل النص الشعري؛ إذ استطاع الشاعر أن يحقق نوعًا من التوازن بين الحس والخيال، وبين الواقع والتصور الفني، فجاءت صوره نابضة بالحياة وقادرة على إثارة المتلقي وإشراكه في التجربة الشعورية. وهذا ما جعل شعره يمثل نموذجًا مهمًا لدراسة جماليات الصورة الحسية في الأدب الأندلسي.

الاستنتاجات

١. تُعدّ الصورة البصرية الأكثر حضوراً وتنوعاً في شعر ابن شكيل الأندلسي، وهو ما يعكس حدة إدراكه البصري وتأثره العميق بجماليات الطبيعة الأندلسية الساحرة.

٢. وظّف الشاعر الصورة السمعية توظيفاً يتجاوز النقل الأمين للأصوات إلى إضفاء الطابع الوجداني عليها، مما جعل الأصوات تتكلم بلغة المشاعر لا بلغة الطبيعة وحدها.

٣. أسهمت الصورة الشمية في ربط الشعر بالذاكرة والزمن، إذ جعل منها الشاعر آليةً لاستحضار الغائبين وإحياء التجارب الماضية.

٤. جاءت الصورة اللمسية تعبيراً عن رؤية شعرية تُؤمن بأن الوجود الحقيقي يكتمل باللمس والتماس الحسي، وقد وظّفها الشاعر لتجسيد المشاعر المجردة وإضفاء الحيوية على المشاهد الطبيعية.

٥. الصورة الذوقية عند ابن شكيل ذات طابع انزياحي واضح :فالذوق الحسي الخارجي يتحول إلى ذوق روحي وعاطفي داخلي في أغلب الأحيان.

٦. تتداخل الحواس في شعره وتتشابك في ظاهرة" التحاسس "أو تداخل الحواس، مما يمنح قصائده ثراءً حسياً متعدد الأبعاد وعمقاً دلالياً يُثير القارئ ويستدرجه إلى التأمل.

٧. البيئة الأندلسية بما تزخر به من مثيرات حسية كانت الرافد الأول لكل هذه الصور، مما يجعل قراءة شعر ابن شكيل قراءةً لروح الأندلس نفسها.

٨. أسهمت البيئة الأندلسية في تكوين الحس الجمالي لدى ابن شكيل وتوجيه خياله نحو بناء صور حسية متنوعة.

٩. ارتبطت الصورة الحسية عند ابن شكيل بالبعد النفسي ارتباطًا وثيقًا، فلم تكن وصفًا خارجيًا للأشياء بقدر ما كانت تعبيرًا عن التجربة الشعورية للشاعر.

١٠. أسهم تداخل الحواس في إغناء الصورة الشعرية ومنحها أبعادًا دلالية متعددة.

١١. شكلت الحواس الخمس منظومة متكاملة في بناء الصورة الشعرية، ولم تعمل بصورة منفصلة داخل النص.

١٢. كشفت الدراسة عن وعي فني واضح لدى الشاعر في استثمار الإمكانات التعبيرية للحواس لخدمة المعنى الشعري.

التوصيات

١. يُوصي البحث بإجراء دراسات مُقارِنة بين الصورة الحسية في شعر ابن شكيل ونظرائه من شعراء الأندلس كابن زيدون وابن حمديس والمعتمد بن عبّاد، للوقوف على خصوصية كل شاعر وسماته المميّزة.

٢. يُستحسن تناول ظاهرة تداخل الحواس في الشعر الأندلسي بدراسة مستقلة مُعمَّقة، تُبيّن جذورها التاريخية وأبعادها الجمالية وآليات اشتغالها في النصوص.

٣. يُنصح بتوظيف مناهج التحليل الأسلوبي الحديثة وعلم الجمال التجريبي في تحليل الصور الحسية في الشعر الأندلسي لتجديد المقاربات النقدية وإثرائها.

٤. يُقترح إدراج دراسة الصورة الحسية في المناهج الأكاديمية الخاصة بالأدب الأندلسي، باعتبارها من أبرز سمات هذا الأدب وأكثر خصائصه تميزاً.

٥. يُوصى بإعداد معجم شعري لصور الحواس في الشعر الأندلسي، يُيسّر على الباحثين اللاحقين الوصول إلى هذه المادة الغنية وتوظيفها في أعمالهم.

قائمة المصادر والمراجع

١. ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق :إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت،1979 م.

٢. ابن شكيل الأندلسي، الديوان، تحقيق وتقديم :عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي، القاهرة،1995 م.

٣. الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة، تحقيق :محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة،1991 م.

٤. المقري التلمساني، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق :إحسان عباس، دار صادر، بيروت،1968 م.

٥. إسماعيل، عز الدين، الشعر العربي المعاصر :قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار العودة، بيروت،1981 م.

٦. البطل، علي، الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، دار الأندلس، بيروت،1980 م.

٧. عباس، إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي :عصر الطوائف والمرابطين، دار الثقافة، بيروت،1978 م.

٨. عصفور، جابر، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، بيروت،1992 م.

٩. فضل، صلاح، علم الأسلوب :مبادئه وإجراءاته، دار الشروق، القاهرة،1998 م.
١٠.مطلوب، أحمد، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد،1983 م.
١١.ناصف، مصطفى، الصورة الأدبية، دار الأندلس، بيروت،1983 م.
١٢.هلال، محمد غنيمي، النقد الأدبي الحديث، دار الثقافة، بيروت،1973 م.

هوامش البحث

[1]) أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد،1983 م، ص112

[2]) عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر :قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار العودة، بيروت،1981 م، ص89 .

[3]) جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، بيروت،1992 م، ص.45

[4]) مصطفى ناصف، الصورة الأدبية، دار الأندلس، بيروت،1983 م، ص33 .

[5]) إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي :عصر الطوائف والمرابطين، دار الثقافة، بيروت،1978 م، ص201 .

[6]) ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت،1979 م، ج2، ص87 .

[7]) المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت،1968 م، ج3، ص144 .

١ جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٢م، ص ٣٦٨-٣٧٢؛ مصطفى ناصف، الصورة الأدبية، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨٣م، ص ٧٤-٧٩.

٢ عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر: قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار العودة، بيروت، ١٩٨١م، ص ١٣٢-١٣٦.

١ إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين، ص ٢١٥.

مصطفى ناصف، الصورة الأدبية، ص ٨٨.

[11]) ابن شكيل الأندلسي، الديوان، تحقيق وتقديم عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي، القاهرة،1995 م، ص56.

[12]) ابن شكيل الأندلسي، الديوان ، مصدر سابق، ص78 .

[13]) علي البطل، الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، دار الأندلس، بيروت،1980 م، ص67 .

٢ البطل، الصورة في الشعر، ص ٧٣.

[15]) ابن شكيل الأندلسي، الديوان، مصدر سابق، ص.103

[16]) محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار الثقافة، بيروت،1973 م، ص389 .

[17]) ابن شكيل الأندلسي، الديوان ، مصدر سابق، ص115 .

2محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، ص ٣٩٢.

[19]) ابن شكيل الأندلسي، الديوان ، مصدر سابق، ص130 .

[20]) صلاح فضل، علم الأسلوب :مبادئه وإجراءاته، دار الشروق، القاهرة،1998 م، ص254 .

[21]) ابن شكيل الأندلسي، الديوان، مصدر سابق، ص148 .

١ صلاح فضل، علم الأسلوب، ص ٢٥٧.

[23]) ابن شكيل الأندلسي، الديوان، مصدر سابق، ص ١٤٨.

[24]) المصدر نفسه، ص162 .

[25]) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة،1991 م، ص78 .

[26]) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص177 .

2عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص ١٨١.

[28]) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مصدر سابق.

[29]) ابن شكيل الأندلسي، الديوان، مصدر سابق، ص189 .

[30]) المصدر نفسه، ص213 .

[31]) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص200 .

[٢] جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ص ٣٨١.

مصطفى ناصف، الصورة الأدبية، ص ١٠٢.